فـ ﴿ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أياً كان هو فعله، وليس ذاته أو من صفات ذاته حتى يكون قديماً أزلياً، فلا ذكر إلّا لمتذكر، ليس قبله ولا بعده، فكما المتذكر خلق محدّث، كذلك الذكر خلقٌ محدَث.

و﴿مُّحْدَثٍ﴾ لها واجهة ذاتية هي الحدوث الذاتي فيشمل كلّ ذكر من الرحمن، وأخرى نسبية تعني الحادثة الجديدة بعد القديمة، فهؤلاء يرفضون محدَث الذكر من الرحمن مخلدين إلى قديمه أياً كان، كإخلاد أهل التوراة إلى التوراة رفضاً لما بعدها، وإخلاد أهل الإنجيل إلى الإنجيل رفضاً للقرآن، رغم أن الجديد من الرحمن كما القديم، وفي الجديد تجديد وتقديم إلى ما ليس في القديم! والذي يعرض عن محدث الذكر هو - بطبعه - معرض عن قديمه مهما تراءى أنه مقبل إليه.

وقد يشمل ﴿مُّحْدَثٍ﴾ أصله قديماً وحديثاً، كما يشمل حديثه، فذكر الرحمن سلسلة موصولة أخراها إلى أولاها، والإعراض عن جانب منها إعراض عنها كلها.

وقد يُعنى من «ذكر محدث» - فيما تعنيه - آي الذكر الحكيم التي تترى عليهم تلو بعض ولصق بعض، بل هو أهمُّ الذكر وأتمه، وسائر الذكر توطئة له وتعبيد طريق!..

أم أن «ذكر محدث» تحلّق على كلّ ذكر آفاقي وأنفسي ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ...﴾.

ولماذا ﴿ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ والذكر رحمة رحيمية أياً كان؟ علّه لأن الذكر هو قضية الرحمة العامة حيث تعم كافة الآهلين له من أمن منهم ومن كفر، ومن ثمَّ هو لمن آمن رحمة رحيمية.

فـ ﴿ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ككل هو رحمة رحمانية حيث يعم المتذكر والمعرض، وهو لمن يتذكر رحمة رحيمية.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾﴾:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ بكل ذكر من الرحمن محدث أم أي ذكر ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟﴾: أخبار هامة ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يوم الدنيا كآية مُخضِعة لها، إنْ في الرجعة أم قبلها، أو يوم البرزخ والأخرى حيث يتجسد فيها ذلك التكذيب الكذيب ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]؟.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾:

ألم يروا إلى ما خلق الله من شيءٍ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ فالواو هنا تعطف إلى آية البصيرة ﴿مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ فإن لم يتبصروا بها فليبصروا إلى آية حسية هي الأرض بنباتاتها من كلّ زوج كريم، فالزوجية التي هي لزام الأرض بأشيائها دليل الحاجة إلى الخالق الفرد الأحد، ومختلف أشكال أزواجها دليل على التصميم ووحدته.

فهذه الأرض التي يعيشون عليها، أم وسائر السبع مهما تطلبت الرؤية إليها أسفاراً جوية ﴿كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ من جماد ونبات وحيوان ومن إنس وجان، : ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[2] فكل شيء من كائنات العالم أرضية وسماوية زوج، مهما اختلفت الأزواج في كونها وكيانها، ولا فرد حقيقياً إلّا الله.

﴿زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ من فرد كريم واسع الرحمة، فكل زوج كما خلق الله وأنبت كريم، ولا لؤم ولا شؤم إلّا من أنفس الأزواج، منها أو من نظائرها، فالخير كله بيديه والشر ليس إليه.

(١) سورة النمل، الآية: ٩٠.
(٢) سورة نوح، الآية: ١٧.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾:

تعقيبة مكرورة في عرض لآيات كونية وأخرى رسالية تشريعية، تتكرّر مرات ثمان بمناسبات ثمان، أولاها هي موقف الكفار أمام هذه الرسالة السامية ومن ثم موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب، كما وتختم السورة بعرض الرسالة الإسلامية كما بدأت به.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ البعيد المدى القريب الصدى من نابت كلّ زوج كريم ومن كلّ ذكر محدث من الرحمن حيث يتجاوبان ﴿لَآيَةً﴾ تدل على مزوِّجه ومزوِّج كلّ ذكر ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾: المكذبين على مدار الزمن حيث يتغافلون عنها ﴿مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا رسول الهدى ﴿لَهُوَ﴾ لا سواه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ القاهر الغالب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده في موضع العفو والرحمة.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ
﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى
فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ
فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ
رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا
وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا
خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ
أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا
تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ
أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ
أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ
﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ
أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ
حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ

لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ
ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا
لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ
لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ
فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا
يَأۡفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ
مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي
عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ
أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيۡرٌۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا
رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ
إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ
قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن
جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ
﴿٥٩﴾ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا
لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ
ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾
وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا
ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

تسع وخمسون آية تستعرض معارضة فرعون الرسالة الموسوية منذ البداية

حتى غرق فرعون وقومه، عرضاً لطائل الحوار بينهما، ثم مسرح السحرة والآية الرسالية إلى ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

ومن ثم نرى عرضاً لرسالة إبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام كلاً في قصص له بتلحيقة واحدة: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾[1] تسلية لخاطر الرسول الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم كيلا يخلد بخلده الشريف أنه بِدعٌ من الرسل في مواجهة التكذيب، فالرسالات الإلهية هي ذات طبيعة واحدة وصاحبة عرقلة واحدة، فعلى الداعية التصبُّر في الدعوة حتى النهاية.

ولقد مضت حلقات من قصة موسى في البقرة والمائدة والأعراف ويونس والإسراء والكهف وطه، إضافة إلى إشارات أخرى في سواها، وكل هذه متناسقة مع جو السورة وموضوعها الرئيسي، والحلقة المعروضة هنا هي مسرح الرسالة المعارضة لصرح الفرعونية الجبارة، مقسَّمة إلى مشاهد متنوعة بينها فجوات متناسقة.

وقصص موسى كسائر القصص القرآنية جديدة في كلّ مسرح رغم تكرارها موضوعياً، لأنها تناسق كلّ الأجواء المستعرضة فيها، لولاها لكان الجو ناقصاً، فإلى مشاهد سبعة هنا بين موسى وفرعون:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾:

ذلك النداء يتم بعد ما يكمل موسى عشر حجج في مدين بعد ما خرج إليها من مصر خائفاً يترقب ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾[2] ففي ذلك القدر المقدَّر لبزوغ الرسالة هكذا يؤمر.

واذكر ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ كما ناداك، وآواه كما آواك ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٨، ٩.
(٢) سورة طه، الآية: ٤٠.

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم وأهليهم وظلموا الحق، عائشين في ثالوث الظلم، المظلم جوَّ الحياة على عائشيها، ففي الرسالات الإلهية سلبيات وإيجابيات، سلباً لآلهة الأرض ثم إيجاباً لإله السماوات والأرض، وسلباً لأي ظلم من أي ظالم فإيجاباً للعدل: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ فقد أظلمت الجوَّ طغواهم، فلتحملهم على تقواهم، أم لا قل تقدير تصدهم عن طغواهم.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾:

أعذار أربعة يعتذر بها موسى عن ذلك الإتيان، أنكوصاً عن تكليف الرسالة بأسره؟ وكيف يرسل الله الناكص المنتكس! أم عرضاً لحاله استنصاراً من ربه على عدوه؟ وعلمه بحاله يكفي عن مقاله!.

في الحق إنه عرض الحال التماساً وهو يعلم الحال، وكما في كلّ دعاء واستدعاء، و﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ برهان لا مرد له على عدم النكوص، وإنما هو استمداد من ربه أن ينصره على عدوه.

وترى فرق التكذيب والقتل في سبيل الدعوة أهما مما يتطلب عرض الدعاء، وهما طبيعة الحال في كافة الدعوات الرسالية؟ ففريق يكذِّبون وآخرون يصدِّقون، وفريق يحاولون قتل الداعية وآخرون يمانعون؟.

إنه هنا يخاف التكذيب المطلق ألّا يصدق أبداً، لا مطلق التكذيب ممن دأبهم التكذيب، ويخاف أن يُقتل قبل نشور الدعوة، إذاً فما هي فائدة هذه الدعوة بين تكذيبها وقتل الداعية؟!.

ثم ومن دوافع التكذيب المطلق والقتل ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ...﴾ فلذلك ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ وذلك قصور في الدعوة، فليستمد ربَّه بإمدادات متصلة وأخرى منفصلة كـ ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾.

فلئن كان منشرح الصدر منطلق اللسان كان بالإمكان أن يرتد تكذيبه كيفما كان، فهو الاحتياط الرسالي حفاظاً على سلامة الدعوة لا.

الداعية اللهم إلّا لسليم الدعوة وقاطعها.

فقد احتاط من أن يحتبس لسانه في بزوغ الدعوة وهو في موقف المنافحة عن رسالة ربه، فتبدو الدعوة ضعيفة قاصرة منذ البداية، واحتاط من أن يقتلوه فتتوقف دعوته دون أن تُجبر عن ضعفها، وهذا هو اللائق بموسى الرسول الذي صنعه الله على عينه واصطنعه لنفسه، ونراه مستجاباً فور دعوته.

ومما لا بد منه في كلّ دعوة رسالية مجال التصديق وتجوال الدعوة قبل قتل أو موت الداعية، وانشراح صدره وانطلاق لسانه[1] في الدعوة، فلذلك ﴿قَالَ رَبِّ...﴾.

هنا من دوافع تكذيبه المطلق وقتله ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ...﴾ أن قتلت منهم نفساً فلا يفسحون لي - إذاً - مجالاً للدعوة، ومنها أن فرعون رباني وليداً، فهو يتفرعن عن أن يسمع إلى دعوة ربيبه، المناحرة لدعوته.

ولم يكن قتله القبطي ذنباً في شرعة الله، فإنما ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ في زعمهم، وأما المشرك المحارب فمسموح قتله ولا سيما حالة الدفاع، مهما كان قتله في واجهة أخرى غير مشكور، إذ أخر دعوته الرسالية عشر سنين... وهنا يجد حاضر الاستجابة فور الدعوة:

﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾:

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[2] ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾[3].

---

(١) تجد تفصيل القول في عقدة لسانه في طه فراجع.

(٢) سورة طه، الآية: ٤٦.

(٣) سورة طه، الآية: ٣٦.

كلّا! فلن يكذبوك إلّا ومعهم مصدقوك، كلا! لا يضيق صدرك فقد شرحناه، ولا يحتبس لسانك فقد أطلقناه، كلا! ولن يقتلوك فقد راعيناك ﴿فَٱذۡهَبَا﴾ أنت وأخوك هارون ﴿بِـَٔايَٰتِنَآۖ﴾ التسع إلى فرعون وملئه ﴿إِنَّا﴾ بجمعية الصفات على جمعية الرحمات ﴿مَعَكُم﴾ أنتما ومن اتبعكما ﴿مُّسۡتَمِعُونَ﴾ قالة فرعون وقومه، فمجيبون في قال وحال وفعال فـ ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾[1].

﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٧﴾:

هناك «ائت» إذ كان فريداً في رسالته، فلما زود بوزير له وهو من سؤله - إذاً - ﴿فَأۡتِيَا﴾ ولأن هذه الرسالة في الأصل واحدة يحملها موسى بمؤازرة هارون ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لا «رسولاً» إذ لا إثنينيّة فيها لا في مادة الرسالة ولا في آياتها مهما كانا رسولين كحاملي هذه الرسالة ﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾[2].

﴿فَأۡتِيَا... أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٧﴾ فلم يكن رسولاً إلى فرعون وملئه - فقط - ليدعوهم إلى شرعته، بل ليطلب - بالفعل - إطلاق بني إسرائيل عن أسرهم وتسريحهم عن حصرهم ﴿إِنَّا رَسُولُ... أَنۡ أَرۡسِلۡ﴾ دون «آمِن وأرسل» مما يصرح أن هذه الرسالة ليست بالفعل إلّا ناحية منحى السلب، أن يتخلى فرعون عن بني إسرائيل فإنهم هنا محور الدعوة الرسالية، وإن كانوا هم أيضاً تشملهم هذه الدعوة العالمية كما آمن بها السحرة.

فالرسالة الموسوية ككل هي عالمية مهما بدأت من بني إسرائيل المضطهدين حيث هم حجر الأساس فيها، وكذلك فرعون وقومه إذ كانوا حجر عثرة للأساس، ولات حين مناص إلّا سلباً لأسرهم بأسرهم حتى

(١) سورة القصص، الآية: ٣٥.
(٢) سورة طه، الآية: ٤٧.

يخلوا له جو الدعوة دون معارض مستخف لهم، مستكبر عليهم، متفرعن فيهم، فالسلب دوماً يتقدم الإيجاب حتى يحل هو محله من الإيعاب، فيستتب أمر الشرعة قبولاً لها وإقبالاً إليها.

أترى ذلك القول الرسالي للطاغية كان قاسياً؟ كلّا حيث القساوة - ولا سيما من مثل موسى على سابقته معه - ليست إلّا عرقلة في سبيل الدعوة، وإنما كما في طه وسواها ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[1].

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾:

أتياه وقالا له ما حُمِّلاه: دعوى الرسالة ومادة منها سلبية ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وفي ذلك سلب الربوبية عن فرعون وسلب سلطته عمن يملكهم، رسالة تهدم صرح السلطة الزمنية والروحية مع بعض، ومن هو فاعل هذه السلبية القاضية؟ من تربى عند صاحب السلطة وليداً ولبث فيهم عمراً، ثم وجنى فيهم جناية! ثالوث المهانة فيمن أرسل لهذه السلبية القاسية القاضية.

يا رسول رب العالمين! ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ فكيف تعارض مربيك إلى خلاف ما رباك؟ ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ فأنت إذاً عُضوٌ منا وقسم ضعيف من كياننا، فكيف تتفضل علينا؟ ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾ حيث قتلت منا قتيلاً ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ نعمةَ الإبقاء إذ ما قتلناك رغم المرسوم الملكي عندنا بتقتيل الولائد من بني إسرائيل، و﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ نعمة التربية ولبثها! و﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بربوبيتي إذ تناسيتها فأجرمت فينا، ثم أتيت رسولاً إلينا تتهدم صرح ملكنا، بل ومن الكافرين - أيضاً - بربك الذي بعثك إذ كنت عندنا كأحد منا! فكيف تواجهنا هكذا بذلك الوجه الأسود والسابقة السوداء وهو خلاف العقلية والتربية الإنسانية؟.

---

(١) سورة طه، الآية: ٤٤.